المحاضرة (01): إرهاصات النقد العربي المعاصر

تمهيد:

شهد النقد الأدبي تحولا في طروحاته الإجرائية؛ حيث انتقل في مقاربة النصوص الأدبية من الاشتغال على مقولة السياق إلى الاشتغال على مقولة النسق، إلا أن هذا التحول المنهجي قد مهدت له مجموعة من الإرهاصات التي ساهمت في تشكيل المنظومة النقدية المعاصرة في مقارباتها النصية، على أساس التركيز على النص دون الوسائط الخارجية المحيطة به.

المرجعيات المُؤسِّسَة:

اتسمت المقاربات المنهجية الحديثة باتجاهها السياقي، حيث تعاملت مع المنجز الأدبي من منطلق مقولات التاريخ والمجتمع ، وكذلك سيرة الأديب، وكل ما يتعلق بالممارسة الإبداعية الأدبية من ظروف ووقائع ناتجة عن الخصوصيات الثقافية والحضارية، بينما راح النقد الأدبي المعاصر يتجه وجهة بنيوية تعنى بمقاربة النص منه وإليه.

غير أن هذا الاتجاه قد سبقته عدة إرهاصات راحت تعمل على بلورة مقولة النسق في الدراسات النقدية الأدبية؛ ولعل أهم رافد تجدر بنا الإشارة إليه متصل بالدراسات اللغوية؛ حيث «أحرزت الثورة التي أحدثها علم اللغة الحديث قفزة نوعية دفعت بنقل النقد الأدبي والنص الأدبي معا بعيدا عن التأملات والانطباعية الذاتية، وأن يكتسب أولهما طابع العلم، وأن تتم مقاربة ثانيهما مقاربة علمية»[1].

وانفتاح النقد الأدبي على مقولات علم اللغة الحديث جعله يشتغل وفق قوانين هذا العلم؛ وحدث أن تمخض عن ذلك ظهور توجهات منهجية جديدة على مستوى الإجراء النقدي، وقد اتخذت من أفكار العالم اللغوي السويسري فرديناند ديسوسير منطلقا لها، خاصة محاضراته في اللغويات؛ التي شكلت المهاد المنهجي للفكر البنيوي في الدرس اللغوي؛ ومن هذه الأفكار[2]:

[1]– عاشور توامة، الأبعاد العلمية في النقد الأدبي العربي المعاصر، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير، تخصص النقد الأدبي، إشراف محمد عبد الهادي، قسم الأدب العربي، كلية الآداب واللغات، جامعة بسكرة، 2009-2010، ص66.

[2]– ينظر: علي آيت أوشان، اللسانيات والبيداغوجيا نموذج النحو الوظيفي (الأسس المعرفية والديداكتيكية)، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، ط1، 1998، ص136-137.

– ضرورة التمييز بين اللغة (النظام) واللغة (الكلام)، حيث تقوم اللغة النظام على مجموع القواعد النحوية والصرفية، أما اللغة الكلام فتقوم على الاستعمال الفردي لهذه اللغة لدى المتكلم.

– تقتضي دراسة اللغة بوصفها نظاما من الإشارات التركيز على العلامات اللغوية؛ التي تتشكل من تركيب الصور الصوتية (الدوال) والتصورات الذهنية (المدلولات)، وما يربط بينها من علاقات، وقد تم إدخال عنصر المرجع لاحقا في النقد البنيوي.

وقدّم دوسوسير من هذا المدخل مجموعة من الثنائيات المتقابلة في وصف النظام اللغوي؛ وتأتي ثنائية اللغة والكلام في مقدمتها؛ حيث ميز بين القواعد والمبادئ الخاصة بلغة معينة؛ حيث تعمل عملها على مستوى الذهنية الجماعية بوصفها نموذجا مرجعيا للنظام اللغوي الخاص بها، وبين الممارسات الفعلية التي يجسدها أداء الأفراد أثناء تواصلهم بواسطة الكلام؛ وإذا كان الكلام فرديا وآنيا، فإن اللغة جماعية وهي التي تتحكم في توجيه عمليات الكلام؛ بوصفها مرجعا تحتكم إليه[1].

ولعل من أهم الثنائيات التي كان لها تأثير بالغ في مجالات التفكير اللغوي والأدبي والنقدي والإنسانيات عموما، ما يعرف بعالمي اللغة الداخلي والخارجي؛ حيث يقوم التمييز بينهما على أساس أن العالم الخارجي مرتبط بالعلاقات والظروف والبيئات المتصلة بالمعطيات اللغوية، في حين أن علم اللغة الداخلي مرتبط بقوانين اللغة في حد ذاتها بمعزل عن السياقات الأخرى التي تقع خارجها[2].

كما ميز سوسير بين المحور التزامني الوصفي الذي تتم على مستواه دراسة اللغة؛ بمعزل عن التطور التاريخي، والمحور التعاقبي (التطوري التاريخي) الذي تتم على مستواه دراسة النص تزامنيا بالنظر إليه كبنية مستقلة، كما فرّق بين العلاقات الأفقية؛ وهي علاقات التركيب والتأليف، وما تؤديه من وظائف داخل السياق، وكذلك العلاقات العمودية وهي علاقات الاستبدال والاختيار التي يقوم بها الكاتب على سبيل انتقاء الكلمات[3].

[1]– ينظر: صلاح فضل، مناهج النقد المعاصر ومصطلحاته، ميريت للنشر والمعلومات، القاهرة، مصر، ط1، 2002، ص86.

[2]– ينظر: نفسه، ص87.

[3]– ينظر: أحمد حساني، مباحث في اللسانيات (مبحث صوتي، مبحث دلالي، مبحث تركيبي)، منشورات كلية الدراسات الإسلامية والعربية، الإمارات العربية المتحدة، ط2، 2013، ص225.

نتج عن هذا التوجه اللغوي ظهور المناهج النقدية النسقية التي تعنى بدراسة النسق اللغوي في النصوص الأدبية، والعمل على تحليله وفق قوانين التحليل اللساني؛ فظهرت الشكلانية؛ مؤسسة منهجها على مفهوم الشكل، رافضة المقولة النقدية الكلاسيكية التي ترى في النص الأدبي ثنائية الشكل والمضمون مع التأكيد أن العلامة الفارقة بالنسب للإنجاز الأدبي متعلقة ببروز شكله.

وقد ذهب أنصار هذا الاتجاه إلى ربط شعرية النص بالقيم الشكلية؛ وفي هذا السياق «اهتم "جان كوهين" بالشكل وجعله في بؤرة اهتمامه؛ لأن الأدب ليس علما بل هو فن، والفن شكل وليس شيئا آخر غير الشكل، وأن للغة الإبداعية خصوصياتها التي تميزها عن اللغة العادية، وأن جمالية اللغة الشعرية ليست اعتباطية ومن محض الصدفة، بل هناك مقاييس يتم نهجها، وصور تعبيرية يستعملها الشاعر»[1].

تأثرت المقاربات النقدية للنصوص الأدبية بالاتجاه الشكلاني؛ بل وبالفكر اللساني الجديد عامة، وكانت من نتاج ذلك أن قادت هذه التصورات إلى ظهور أفكار البنيوية وتطورها في المسار النقدي؛ على أساس أن شكل النص يمثل بنيته الكلية؛ وهي قابلة للتفريع والتوزيع.

لقد أحدثت المرجعية اللسانية تحولا كبيرا في المنظومة النقدية الأدبية؛ إيذانا بميلاد عهد جديد في تاريخ النقد الأدبي العربي خاصة، وذلك في سياق تلقيه الخطاب النقدي الغربي؛ ويمكن تبن ملامح هذا التحول في دراسته الأدب وفق المبادئ الآتية[2]:

1. إقصاء السياقات الخارجية التاريخية والإنسانية للنص، وبذلك استحالت كل الظروف التاريخية والواقعية في حكم المرجعية الملغاة.

2. التركيز على البنيات اللغوية الداخلية للنص

3. تخطي عتبة المناهج السياقية التاريخية والاجتماعية والنفسية في المقاربات الإجرائية للغة النصية

4. عزل النص الأدبي عن صاحبه، فلا صلة له بإنتاجية المعنى وبناء الدلالات اللغوية.

[1]– عاشور توامة، الأبعاد العلمية في النقد الأدبي العربي المعاصر، ص81.

[2]– ينظر: أحمد مداني، المرجعية الفكرية للمناهج النقدية الغربية المعاصرة وتأثيرها على النقد العربي، مجلة دراسات لسانية، جامعة البليدة، مج2، ع10، 15 سبتمبر 2018، ص186.

نخلص إلى أن النقد الأدبي قد استحدث مناهجه المعاصرة على أسس علمية وموضوعية بفضل الآفاق الواسعة التي فتحها أمامه الفكر علم اللغة الحديث بمقولاته وتصوراته؛ وكان من أهم تجليات هذا الأثر محاولاته الجادة «لتأسيس مقاربة علمية موضوعية حول النص الأدبي، باعتباره المادة التي يتجسد فيها الأدب، وسعى –كذلك– إلى استخلاص القوانين الخاصة بالنص الأدبي، بما يحقق خصوصيته، وبما أن علم اللغة الحديث قد فتح آفاقا جديدة لتطور المقاربة العلمية للأدب تجسدت في (علم الأدب) بصيغه المختلفة، التي اتخذتها الدعوة إلى تأسيس علم الأدب تبعا للنظريات الأدبية الأساسية، والتي تأسست حول الخطاب الأدبي، فإنه من الضروري التركيز على الشكلانية، والبنيوية، والشعرية، وما قدمته أهم نظرياتها للخطاب الأدبي»[1].

إن التحول من مقولة السياق إلى مقولة النسق جعل النقد الأدبي المعاصر يتجاوز تصوراته المنهجية السابقة متطلعا لمنظومة جديدة من المناهج المعاصرة تماشيا ومتطلبات فهم وتأويل الممارسات النصية المعاصرة، غير أن النص وما يتمتع به من سلطة جمالية استمر في مراوغة المقاربات النقدية بغض النظر عن مفاهيمها الإجرائية، ولهذا لم يتصل النقد الأدبي إلى مؤداه النهائي في استيعاب المقاصد النصية.

مرتكزات النقد الأدبي المعاصر:

هناك مجموعة من المؤشرات التي يمكن بواسطتها تحديد ملامح الخطاب النقدي المعاصر، وكذلك الفصل بين المقاربات النقدية التي تعنى بالأبعاد السياقية في دراسة النص الأدبي، وتلك التي تعزله عن سياقاته الخارجية مركزة على ما يشتمل عليه منى عناصر نسقية؛ وهي تدخل في صميم الدرس النقدي المعاصر وفق المرتكزات الآتية:

1. تجاوز المقاربات النقدية المنهجية الكلاسيكية، بما في ذلك الاتجاهات التاريخية والاجتماعية والنفسية، وهي مناهج سياقية تعنى بتفسير النص من مداخل اتصاله بالتاريخ والمجتمع والسيرة النفسية للأديب؛ حيث تحولات القصدية النقدية من النظرة الكلاسيكية للنص على أنه مجرد محاكاة للواقع، إلى النظرة الرومانسية القائمة على التعبير عن الاهتمامات الفردية، ثم النظرة الواقعية القائمة على التعبير عن المجتمع، واستمرت الرومانسية والواقعية تتحكمان في توجيه الفكر الأدبي والنقدي حتى مطلع القرن العشرين، وبعد ذلك تراجع تدريجيا حضور النقد المنهجي الكلاسيكي في مقابل تعاظم أثر الدرس اللغوي حيث أقبل يحكم سيطرته على الخطاب النقدي الأدبي مصطلحا ومنهجا.

[1]– عاشور توامة، الأبعاد العلمية في النقد الأدبي العربي المعاصر، ص81.

2. تبلورت مناهج النقد الأدبي المعاصر بفضل ظهور ما عرف لاحقا بتيار النقد الجديد، وكذلك المدرسة الشكلانية الروسية، بمختلف مفاهيمها ومقولاتها الأدبية والشعرية، الأمر الذي دفع الممارسة النقدية المعاصرة في اتجاه العناية باللغة النصية والحرص على دراستها دراسة تحليلية شكلانية وبذلك كانت اللسانيات الحديثة رافدا أساسيا لهذا الاتجاه النقدي الجديد.

3. شهد النقد الألسني تطورا ملحوظا محققا المزيد من التراكم البحثي في دراسة الشكل، ثم امتد لدراسة البنيات النصية، وما تشتمل عليه من ظواهر أسلوبية.

خلاصة:

انحدر النقد الأدبي المعاصر من النظريات اللسانية خاصة الشكلانية الروسية التي تبنت مفاهيم النسق، والبنية، والتركيب، والاستبدال التزامن التعاقب وغيرها وقد انطلق من اللغة في فهم النص الأدبي، متخذا من البنيويات اللغوية رافدا له؛ بما في ذلك البنيوية، والأسلوبية، والسيميائية، والتأويلية، مع التركيز في كل اتجاه نقدي محايث على تحليل البنيات النسقية، وما تؤديه من علاقات داخل النظام اللساني.

وبذلك شهد النقد الأدبي المعاصر تحولا كبيرا في تصوراته؛ حيث أعلن القطيعة مع الإجراءات التقليدية في معالجة النصوص الأدبية، وأقبل يقتطع النص من سياقاته المختلفة ليتعامل معه بمعزل عن التأثيرات الخارجية التي ساهمت في إنتاجه إلا أنها لا تمثل النص نفسه، أما عن المقاربة الإجرائية فتعنى بالدراسة اللسانية التحليلية للنص في صلته بذاته، وذلك بالتركيز على بنياته الداخلية نحوا وصرفا وصوتا ومعجما وتركيبا.